

تعليمية النحو العربي من خلال مقدمات كتب تعليمية أندلسية -
دراسة توصيفية تحليلية في ضوء الفكر التعليمي الخلدوني، والديداكتيك المعاصرة

**Teaching Arabic grammar through the introductions of Andalusian educational books
An analytical descriptive study in the light of Khaldunian educational thought and
contemporary didactics**

مصطفى طويل *

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

mustapha1964touil2014@gmail.com

تاريخ الوصول: 2021/08/18 تاريخ القبول: 2021/10/06 تاريخ النشر: 2021/11/04

الملخص:

هذه المقالة أردتها أن تكون رسدا لتعليم العربية في الفكر النحوي التعليمي الأندلسي، قراءة توصيفية تحليلية في مقدمة ثلاثة كتب ذاع صيتها في الأندلس - كتاب الضروري في النحو لابن رشد، والمقرب لابن عصفور مرفقا بمثله، وكتاب تقريب المقرب لأبي حيان الأندلسي - لما أحكمته من منهجية في تقديمها للمادة المعرفية، وما رعته في المتعلمين الولدان من قدرات وجدانية وعقلية في عرضها للمادة الضرورية التي تؤسس لامتلاك ملكة لسانية، وكتابية، وتحصيل للملكة إنتاجية قوية تحقق التواصل الفعال، في ظل نظرية البيان والتبيين، وتحت تنويرات الفكر الخلدوني وإضاءات الديداكتيك المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: تعليمية النحو العربي؛ النحو؛ الديداكتيك.

Summary:

This article I wanted to be a follow-up to the teaching of Arabic in the Andalusian educational grammatical thought, an analytical descriptive reading in the introduction to three books that became famous in Andalusia - the book "The Necessary in Grammar" by Ibn Rushd, and the "Al-Muqrib" by Ibn Asfour accompanied by a similar one, and the book "Taqreeb Al-Muqrib" by Abu Hayyan Al-Andalusi - because of its wise methodology. In her presentation of the cognitive material, and the emotional and mental abilities she nurtured in the neonatal learners in her presentation of the necessary material that establishes the possession of a linguistic and written faculty, and the achievement of a strong productive faculty that achieves effective communication, in light of the theory of statement and explanation, and under the enlightenment of Khaldunian thought and contemporary didactic illumination.

Keywords: educational Arabic grammar; grammar; Didactic.

الهمّ التعليمي قدم في تاريخ الفكر العربي، وبالأخص إذا تعلق الأمر باللسان العربي وما يتعلّق به من شؤون التعليم، فقد دونت لنا الكثير من الكتب الموسوعية بعض المعالم البيداغوجية والديداكتيكية الرائدة.¹ غير أن موضوعنا لا يفتح على هذه المدونة العربية الواسعة، وإنما يقتصر على الفكر التعليمي عند الأندلسيين لخصوصياته² من خلال نماذج رائدة ما زالت في حاجة إلى من ينفذ عنها غبار النسيان، ويزيح عنها ستار الغفلة، وقد اصطفت لموضوعي ثلاثة كتب أتناولها من منظور ديديكتيكي عربي ولكن في ضوء التعليمية المعاصرة، وهذه الكتب هي: الضروري في النحو لابن رشد، وكتاب المقرب ومثله لابن عصفور، وتقريب المقرب لأبي حيان الأندلسي. وانتقائي لهذه الكتب ليس عشوائيا وإنما له مبرراته التعليمية.³

وقد تناولت موضوعي من خلال قراءة توصيفية توجيهية لما ورد في مقدمة هذه الكتب وغيرها، وما تضمنته من توجيهات أصحاب القرار السياسي، ومن توجيهات ألمعية للمعلمين المبرزين، ورصد لوضعيات المتعلمين، وقضايا تتعلق بالمادة التعليمية وشذرات تمس الكتاب التعليمي.

وهذه التوجيهات لم ترد كملاحظات عابرة، وإنما كانت حاجة ماسة تطالبها ظروف تعليمية متردية في مجتمع كان يؤسس لحضارة فكرية سامقة، وخاصة إذا تعلق الأمر بالعلوم التي هي وسيلة لكسب العلوم الأخرى، وفي صدارتها آلة اللسان التي يتم بها الفعل التعليمي.

وهذه القضايا كان الغرض منها الأخذ بيد المتعلمين والمعلمين على حد سواء، لأن هذا الهم لا يضطلع به إلا من أوتي كفاءة تستطيع أن تحل المشكلات الحقيقية التي كانت تقف كحواجز مانعة في وجه العملية التعليمية التعلمية، وخاصة وأن هذا العمل لم يكن مؤسساتيا كما في أيامنا هذه، إنما حمل لواءه أعلام جهابذة في الفكر والفلسفة والنظرية المعرفية.

وأیضا لم يظهر آنذاك رجل متميز كابن خلدون مؤسس علم العمران البشري، هذا العالم الذي سجل في مقدمته فلسفة تربوية، وربما أفاد من أفكار الذين سبقوه قبل القرن التاسع للهجرة.

وأیضا من دواعي البحث في هذا الموضوع هو رصد أولى الأفكار التربوية، وخاصة في فيض ما وصلنا من معارف بيداغوجية جديدة، وذلك للتأسيس لنظرية تعليمية عربية تسير على هدى أفكار أعلامنا الذين خبروا العربية وأسرارها، وعرفوا التعليم ومشكلاته.

واعتمد في تقديم موضوعي على المنهج الوصفي والمقارن مع التحليل لثمين هذه الأفكار التعليمية، ولو كانت أصولا لعلنا نفيد منها في تطبيقاتنا الميدانية وممارساتنا التعليمية، والعمل على تثمينها في دائرة التعليمية الجديدة قصد التأسيس لنظرية تعليمية عربية رائدة.

والذي حدا بي إلى هذا التوجه هو كثرة التأليف العربية الحديثة التي بحثت في تعليمية اللغة العربية.⁴ وهذه الدراسات، تناولت الموضوع من زوايا مختلفة منها: ما كان يدور في دائرة إحياء التراث، ومنها ما كان ينتهج الوجهة اللسانية بكل نظرياتها ومناهجها الجديدة كالبنوية، والنظريات التي تجاوزت الطرح البنوي، ومنها ما

مثلت تطبيقاً حرفياً لنمط نحوي معين كالوظيفية مع المتوكل، وما اعتمده الفاسي الفهري في كتابه اللسانيات واللغة العربية، وغير ذلك من المشاريع المختلفة.

وفي نظري عندما تتعدد الرؤى وتختلف النظريات، يتوجب على الواحد أن يبحث عن حلول أخرى نحسب أن تراثنا ما زال بإمكانه أن يثور لنا فكراً تعليمياً قوياً وخاصة إذا أحسنّا تصفيق مياه البحث فيه ليجهر لنا نظرية عربية ديداكتيكية تستطيع أن تستثمر الجديد في جزئياته لكن تحت أصول عربية وضع قواعدها الأجداد، لأن لا أحد يفهم اللسان العربي كما فهمه الأجداد فقط يحتاج إلى من يحسن خلق توأمة بين أفكار الأجداد، وإسهامات الأحفاد.

ومقالي هذه بنيتها على عناصر ثلاثة هي:

- توصيف لمضامين مقدمات الكتب المنتقاة.
- قراءة للمضامين في إطار الفكر الخلدوني.
- توجيه للأفكار التعليمية في ضوء الديداكتيكا المعاصرة.

أولاً: توصيف لمضامين مقدمات الكتب المختارة:

من خلال تفحصي لمقدمات كتب العربية لدى الأجداد مشاركة كانوا أو مغاربة تبين لي أن أصحابها كانوا يعيشون همّاً تعليمياً كبيراً لعلم العربية "باعتبارها وسيلة إقامة اللسان، ومعرفة روابط العلم، ومعينا لتكوين السليقة اللغوية، ورفيقاً لما يكتبه الكاتب"⁵، ولأجل هذه المهام الجسم بذل العلماء جهداً كبيراً بحثاً وتنظيراً وتطبيقاً وتأليفاً لأجل جعله مستساغاً من قبل طلابه العرب وغيرهم.

أ. كتاب الضروري في علم النحو لابن رشد:

جاء في مقدمة هذا الكتاب: انطلاقاً من أن كل كتاب يمثل تكريساً لما كان عليه شأن التعليم آنذاك فقال: "ينبغي أن نستفتح القول في ذلك بالأشياء التي جرت العادة أن تستفتح بها كل صناعة يرام تعلّمها على المجرى الصناعي، فإن الاستفتاح بها نافع في التعلّم، وهي أن يخبر أولاً ما غرض هذه الصناعة؟ وثانياً ما منفعتها؟ وثالثاً ما أقسامها، ورابعاً النحو المستعمل في تعلمها، وخامساً ما مرتبتها من العلوم؟ وسادساً ما نسبتها من سائر العلوم؟ وسابعاً ما يدل عليه اسمها؟ وثامناً معرفة من وضع هذا العلم؟..."

هنا يعرض لنا المبادئ الأساسية للعلوم، منها المبادئ الواجبة المقدمة، ومنها المندوبة ولكنها تأتي في المنزلة الثانية من المبادئ المقدمة، وهي الحدّ والموضوع والثمرّة.⁶

والضروري في علم النحو "غرضه أن يذكر من علم النحو ما هو كالضروري لمن أراد أن يتكلم على عادة العرب في كلامهم، ويتحرى في ذلك ما هو أقرب إلى الأمر الصناعي، وأسهل تعليمياً، وأشدّ تحصيلاً للمعاني". وهذا ما يسمى في عرف البيداغوجيات الحديثة بأساسيات تعليم اللغة العربية التي يجب أن تبتعد عن الأصول المجردة التي اشتغل بها النحاة في إطار نظرية الأصل والفرع، وهي أصول عسرة المضم في التعليم... يحتاج لفهمها أن تربط بالاستعمال الفعلي⁷ "فالنحو عنده ليس مجرد حفظ للقواعد، بل الكلام على عادة العرب في مجاري كلامهم، ولكن ذلك لا يتأتى إلا بواسطة تحري صناعة النحو، في التأليف والتعليم، لغرضين اثنين هما:

- أن يكون أسهل تعليماً في طريقته: وهو ما يمكن أن نعبّر عنه في أيامنا هذه بمختلف الطرائق البيداغوجية المختلفة، كالطرق النشطة، التي تراعي الاستعمال الوظيفي، والمقام، والانغماس اللغوي وغيرها. وهذا يأخذ بيد المعلمين الذين يلتقون المبتدئين المبادئ الأولى، والضرورية. أي أن الكتاب ألف على نمط الكتب المدرسية بمفهومنا المعاصر.

- و أن يكون أشدّ تحصيلاً للمعاني: وهذا الأمر يخص المتعلمين، بحيث يسهل عليهم تحصيل المعاني المقصودة من كل موضوع لسانی، بمعنى أن المادة الملقنة يستسيغها المتعلم ويفهمها من غير عُنْطَة. ولا يتأتى هذا إلا من خلال الأسلوب المنقح المشوّق.

والمادة التعليمية عند ابن رشد مستويان: قدمهما في شكل ثنائية: الكليات والجزئيات، فقال: "والأفضل في تعليم الأولاد أن يلقى إليهم أولاً الأقاويل الكلية، ويطلبون بحفظها" والجزئيات تؤخر إلى مراحل عمرية لاحقة" لأنهم إن أرادوا الكمال في الصناعة أخذوا بتفاصيلها. وهذا هو عين ما قال به ابن خلدون في القرن التاسع الهجري في الفصل السابع والثلاثين بعنوان: "في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته" فقال: "... يلقى إليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب" والأصول عند ابن خلدون تقابل مصطلح الكليات عند ابن رشد، وهذه الضروريات هي التي تمكن المتعلم من أن يتحصل على الملكة الجزئية، ووصفها ابن خلدون بأنها جزئية وضعيفة، والغاية منها حسب هذا الأخير هي أنها تهيء للمتعلم فهم الفن وتحصيل مسائله.. وهذا هو وجه التعليم المفيد"⁸

والملكة الجزئية هي ما يعرف في أيامنا هذه بالمهارات الفرعية. كمهارة أن يقرأ، ومهارة الكتابة، ومهارة الحديث، ومهارة الاستماع.

وأما الذين يريدون الكمال في الصناعة النحوية فما عليهم إلا بالجزئيات لمزيد من التحصيل، حتى يحقق الملكة الكلية النهائية وكما يقول ابن خلدون: "الوصول إلى آخر الفن، فتجود ملكته ويطرق في طلب الجزئيات المفصلة ليخلص إلى الفن وقد استولى على ملكتها، ولا يكون قد ترك عويصاً ولا مبهماً، ولا منغلقاً إلا وفهمه، وهذا هو وجه التعليم المفيد.

ولعلّ السبب الذي ترك ابن رشد يؤلف كتاب "الضروري في النحو" هو تقصير النحاة في إعداد الكتب التعليمية، فحاول سدّ هذا الفراغ، لأجل صناعة كتاب يستظهر فيه المنهج الدقيق، والقسمة الحاصرة التي لا تداخل فيها.

وهو يميّز هنا بين صنفين من الكتب الموجودة آنذاك، كتب النحو العلمي "أو النظرية النحوية" أي المؤلفات على نهج المجري الصناعي، والكتاب الذي ينشد تأليفه وهو كتاب تعليمي وظيفي ينشد فيه الضروري من النحو، أو ما يعرف بالنحو التعليمي الموجه للمتعلمين.⁹

ثم استرسل في التحليل وبيّن بأن التأليف كان أصحابها يتكفون فيها من الألقاب التي يسمونها إعراباً، ويأخذون الولدان بحفظها، وهذا هو القسم الآخر من النحو الذي يسمى "بالنحو العلمي"، وهنا يمكن أن نشير إلى أمر ذي بال وقف عنده عبد الرحمن الحاج صالح، فقال: "... انطلاقاً من المنعطف الذي حصل في بداية القرن الرابع، وبناء على هذا الاعتقاد - الصحيح - بأن الأصول المستمرة "القوانين" هي التي تفيد العلم بكلام العرب، لا ما يقتزن

بها من التعليل في كتب النحو، أحس النحاة بضرورة تأليف المختصرات في قواعد العربية، وبدأ يعتقد المعلم والمتعلم شيئاً فشيئاً أن هذه المختصرات هي طرائق في ذاتها، وبما أن المختصر في النحو قد يكون فيه شيء من الغموض بالنسبة للمعلم فكثرت أيضاً الشروح عليه، فرجعنا بذلك إلى النحو العلمي "النظري" مرة أخرى.¹⁰ ومن هذه الملاحظة نتقل إلى مقوم المختصرات، وشروحها.

بالنظر إلى كتاب المقرب لابن عصفور، الذي ألفه نزولاً عند رغبة الخليفة الحفصي "حيث قال: "... إلى وضع تأليف منزه عن الإطناب الممل،¹¹ والاختصار المخل، عار¹² عن إيراد الخلاف والدليل، مجرد أكثره عن ذكر التوجيه والتعليل."

إن هذه الخصائص المذكورة ك" التعرية من إيراد الخلاف، والأدلة، ومختلف أنواع التوجيهات، والتعليل" هي من خصائص النحو العلمي، الذي يتطلب الأسس المعرفية، والحجة ودفع الرأي المخالف، بالدليل المقنع، والتعليل له¹³، وكل ذلك من نتائج الفكر التي لا تخدم المتعلمين الذين قطعوا شوطاً لا بأس به في المعرفة النحوية بله المتدئين منهم.

وقد ألفت على هذا النهج في المشرق والمغرب العديد من المؤلفات المختصرة، منها: كتاب " مختصر النحو" للكسائي، وكتاب " مختصر النحو للمتعلمين" للحرمي، والموجز في النحو لابن السراج، والقائمة طويلة ومختصر ابن آجروم المغربي، والإيضاح¹⁴ في النحو للزبيدي.

وخلو المقرب من المثل التي استدرکها من بعد في كتابه " مثل المقرب" تسبب في:

- اظلام معاني الكتاب واستعجامها، لأنه بهذا التوجه التألفي صيره من فئة النحو العلمي، فجاء بالمثل ليستوى وضوحا واكتمال بيان، خاصة وأنها أرفقت بالشرح الوافي المجلي لكل منغلق.

ولعل في هذا المنحى يمكن للكتاب أن يكون كتاباً مدرسياً غانياً عن غيره مكتفٍ بنفسه، أحكاماً ومثلاً وشرحاً وتوضيحاً.

ويمكننا القول بأن كتاب المقرب يدخل ضمن قائمة الكتب التي هي "آلة لغيرها ووسيلة كالعربية فهذه الكتب كما قال ابن خلدون في نظرية التدريس " التعليمية" فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير - أي العلوم المقودة لغيرها - فلا يجب أن يوسع فيها الكلام ولا تُفرع المسائل، لأن ذلك يخرج بها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير، فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود صار الاشتغال بها لغواً، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها، وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم..."¹⁵

بمعنى أن كل نوع من هذين التحوين في مجاله له شأنه وأهميته أما أن نلبس بينهما فإن ذلك ينعكس سلبي عليهما بحيث لا يقدم النحو العلمي شيئاً ذا أهمية، ولا هو يسعف النحو التعليمي المدرسي بما يجديده نفعاً" ثم يكمل ابن خلدون فكرته عن تفاريع النحو قائلاً: " وهذه التفاريع في المسائل ربما أخرجتها عن كونها آلة وصيرتها مقصودة بذاتها... فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو، وهي أيضاً مضرّة بالمتعلمين على الإطلاق، لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم

المقصودة أكثر من اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل، ولهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها ولا يستكثروا من مسائلها، وينبّهوا المتعلّم على الغرض منها ويقفوا به عنده..¹⁶ والحقيقة أن ابن رشد، وابن عصفور وأبا حيان قد أدركوا الفرق بين النحو النظري والنحو التطبيقي التعليمي، وجسّدوا ذلك في مقدماتهم، تصريحاً أو إشارة.

تحليل ما ورد في مقدمة تقريب المقرب لأبي حيان:

القضايا التعليمية التي ذكرها في مقدمته يمكن حصرها في أربعة ملامح هي:

- خير الكلام ما ترتبت أصوله.
 - وأيضاً خيره ما تهذبت فصوله.
 - وأفرغت معانيه في قالب الإيجاز.
 - وتناسبت صدوره مع الأعجاز " أي عدم التناقض، والتشويش "
- وقبل تحليل هذه الملاحظات لا بأس أن نبيّن ملامح طريقة أبي حيان في تعامله مع " المقرب"، وقد رتبها وفق ما ذكرها صاحبها، وهي:
- جمع نفائس كتاب المقرب.
 - إجلاء العرائس من الأفكار الأبيكار للمتعلمين المحبين للعلم.
 - تقديم المادة في لفظ مختصر.
 - الغرض من الاختصار هو الحفظ.
 - طريقة تناولها سهلة التحصيل.
 - الابتعاد عن التعليل والمثال.
 - غانية للبادي " أي أنها للمجتهد المبتدئ، وهي منتهى المقتصدين.
 - تذكر الشادي من المتعلمين " أي مبادئ المجتهدين، كأصول لبلوغ ما يترتب عليها.
 - عدم تدخل أبي حيان لإصلاح الخلل في الحدود المقدمة.
 - ولا يستجلب و لا يجمع وجوه النقد التي وجهت إليه من نقاده.
 - ولا يستدرك الأحكام الضرورية التي أهملها ابن عصفور.
 - و لا يضيف إلى الكتاب الأبواب المهمة التي أغفلها ابن عصفور.
 - يسدّ المنافذ أمام الذين يريدون نقده، لأن الكتاب ليس معارضة لكتاب المقرب.
 - الغاية من هذا التأليف هو خدمة كتاب الله بخدمة لغته التي أنزل بها.
- هذه الملاحظات جمعت أصول النظر في ما يسمى في البيداغوجيات الحديثة بالمثلث البيداغوجي أو الديداكتيكي " المعلم والمتعلم والمادة التعليمية." غير أن الحظ الأوفر منها يتعلق بالمادة التعليمية.

أولاً: المتعلم:

أشار بلفظة دقيقة إلى المتعلم الذي يقدم له الكتاب، وهو المتعلم المحب للعلم المهتم به، الذي يعرف شرف العلم وفائدته، لا كما الشأن في أيامنا، وبلدنا أن التعليم للجميع، والشهادة للكل، ويظهر ذلك في عبارة " بخاطب العروس"، ولا شك أن الذي يخطب الحسنة لم يغلبها المهر، لأنها تستأهل ذلك، وأن خاطبها في حاجة ماسة إليها. وهنا أريد أن أركز على أن ردود الفعل الخاصة بالمتعلم، ورغبته في التعلم من الأمور المهمة في العملية التعليمية، وهنا يكون التعامل مع المتعلم كشخص له اهتماماته لا مجرد وعاء فارغ وسلي.

وفي هذه الحالة نجد متعلما باحثا عن الشخص الذي ينمي قدراته، وروح الثقة، حتى لا تكون عملية التعلم عبئا ثقيلا على المتعلم. فالعلاقة التي تربط المعلمين بالمتعلمين هي علاقة تربوية، وبالمقابل تكون العلاقة بين المتعلم والمعرفة علاقة معرفية تربوية تكوينية، وكما يقول بياجيه " فإن المتعلم يبني معارفه العلمية، وينمي ذاكرته من خلال مواجهته لوضعيات تعليمية ومشكلات حقيقية"، وهذا دائما بمعية توجيهات أستاذه الموجه لتعلماته.

فالمختصرات على هذا الأساس كتب للمتعلمين بالدرجة الأولى، لأن المعلمين تربطهم بالمادة المعرفية علاقة من نوع آخر تسمى العلاقة المعرفية البحثية. فالمختصرات مختصة بالمبتدئين لبلوغ الغايات التعليمية التي تناسب مستوياتهم/ أي الضروريات من المعارف كما سبق لنا أن أوضحناه مع منهج ابن رشد. وهذه المعرفة هي ذات الوقت ينشأ من ورائها المتعلم بلوغ مراقي العلم عن حب لمزيد استزادة وتفصيل.

ثانياً: المحتوى التعليمي:

المحتوى الذي ركز عليه هو نفسه الذي قدمه ابن عصفور في " المقرَّب " من غير زيادة ولا تفصيل. غير أن الذي تميّز به عمل أبي حيان في تقريب المقرَّب " هو طريقة تقديم المحتوى، أي أنه انتقى أسلوبا منقحا مشوقا للمتعلمين ليشد انتباه المتعلم، وذلك بتبسيط العبارة، وتدقيق أسلوبها. فمثلا في حدّ النحو قال: "النحو: علم مؤصل بمقاييس كلام العرب المعرفة أحكام أجزاء ائلف منها".¹⁷ وجاء في المقرَّب " حقيقة النحو: علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكامه التي ليست وزنية."

ففي هذا التعريف نجد قد بسط تعريف النحو، بحيث لم يذكر الحكم الذي يفتقر فيه النحو والصرف عن ضابط الزنة التي تخرج علم العروض، حتى لا يلبس على المتعلم، وربما تعريف ابن عصفور يناسب من تدرج في مرحلة تالية من المعرفة العروضية.

وفي تعريفه للكلام قال: لفظ مركّب مفيد بالوضع، وقد حذف ما ورد بعده من تعريف ابن عصفور " الكلام اصطلاحاً هو اللفظ المركب وجوداً وتقديراً المفيد بالوضع." فقد نقح هذه العبارة بإبعاد " وجوداً وتقديراً" وهذا ما لا يمكن أن يدركه المبتدئ، والدليل على ذلك أن ابن عصفور قد أوضح هذا الحد في مثل المقرَّب بقوله: وقولي: وجوداً: مثاله: قام زيد، وقولي: " تقديراً" مثاله، زيداً، تريد: اضربُ زيداً. ألا ترى أنه مركب في التقدير، ولا وجود له في التركيب. بالنظر إلى اللفظ.¹⁸ وهذا العمل يربك المتعلم المبتدئ، ويُكِلّ ذهنه.

- بناء المادة قد ورد على شكل منهج تغى فيها جمع وتوحيد بعض موضوعاتها في وحدة تعليمية واحدة، حتى لا تنتشت المادة المعرفية بين شتى الأبواب، والجامع في ذلك الموضوع الواحد الذي يحتضنها، وهذا ما دعا إلى اعتماده كثير من الدارسين على سبيل المثال، مهدي المخزومي في كتابه النحو العربي، نقد وتطبيق. من ذلك دمج باب المفعول مع باب الأفعال المتعدية، وباب الأمثلة التي تعمل عمل اسم الفاعل، حيث دمج مع باب المصدر العامل عمل فعله.¹⁹

ملاحظة هامة:

الكتب التي كانت تختصر لغرض تعليمي توجّه في الدرجة الأولى للمعلمين، بمثابة كتاب مدرسي تعليمي، وتصميمه لا محالة تراعى فيه شروط كثيرة من أهمها قدرات التلميذ العقلية ومعارفهم الكسبية، وقضايا أخرى يوليها واضعو المناهج الدراسية في أيامنا أهمية كبيرة جدا.²⁰ ومن أهم ما يجب أن يراعى هو: "التخطيط للمادة اللغوية والتسلسل المنطقي لأجزائها أمران ضروريان: ما من شيء يدخله التنظيم إلّا ولا بد أن يخضع لنوع من الترتيب."²¹ وهذا هو عينه العمل الذي صنعه أبو حيان في إعادة ترتيب ودمج بعض مواد الكتاب الأصلي "المقرب" مع بعضها بعض.

وإذا أردنا أن نضع هذه الكتب في موازين فن التدريسية "الديداكتيك" كعلم مستقل له أصوله وتطبيقاته يمكن القول بأن تراثنا اللساني الأندلسي، من أنصع ما يمثل الكثير من أفكار علماء هذا التخصص على مستوى المادة المقدمة التي تتكفل بدراستها اللسانيات، وتعمل على تطبيقها اللسانيات التطبيقية، وهي التي من خلالها يطرح السؤال البيداغوجي ماذا نعلّم للمتعلمين؟ واختيار المادة المناسبة والمفيدة ترك علماءنا يفكرون بجدّ ورويّة في رصد ما يحتاجه المتعلم في كل مستوى تعليمي، وخاصة في المراحل العمرية الأولى، وهو ما تكفل بضبطه العلماء النحاة المؤدبون كما رأينا عند ابن عصفور وعند أبي حيان وعند الزبيدي، وهذا مرجعه الأهمية التي كان يوليها الحكماء آنذاك قصد تعليم أبنائهم العلوم الأساسية وعلوم الآلة التي هي عون على ولوج كل علم، ولقد رأينا كيف أن ابن خلدون حدد أهم الخصائص التي يجب أن تتسم بها، والركائز التي تبنى عليها حتى لا ينفرط عقد التعليم، وتدهور حالة المؤدبين المعرفية. وهنا تظهر كفاءة هؤلاء العلماء كلّ حسب اجتهاده وخبرته في التعليم، والحقيقة أن لأجدادنا الباع الكبير في ضبط المادة التعليمية حسب قدرات المتعلمين، وقد سبق لي في مقال: نظرية العامل ودورها في وضع برنامج تعليمي رائد، أن أوضحت أن العلماء المعلمين نظرا لمعرفتهم الدقيقة باللغة استطاعوا أن يقدموا برنامجا في منتهى التنظيم، رعاية للمستوى الذهني، وكفاءاته، وذلك من خلال نموذج ابن بابشاذ في كتابه شرح المقدمة المحسبة.²²

الخلاصة:

وكما أسلفنا القول، إن اللسانيات التطبيقية هي التي تتكفل بالنظر في المادة المعرفية اللسانية، ولكن في شقها التطبيقي، لأن اللسانيات التعليمية تتعلق بموضوعها على الخصوص بمعالجة الجوانب اللغوية: الصوتية والافردية والتركيبية، حيث تجري الاختبارات المناسبة لتحديد درجة الشيوخ، والبساطة والتركيب كمناوليل مختلفة درجاتها بين البساطة والتركيب والتعقيد تصاعديا في ترقى المادة المعرفية، وما إلى ذلك من المقاييس اللغوية واللسانية الأخرى. و في

هذا الجانب من البحث رأينا أن علماء المغرب والأندلس استطاعوا أن يبدعوا فيه فأحسنوا تناول مختلف القضايا التي تخص ضبط المسائل الضرورية، وما ينضوي تحتها من جزئيات بمختلف توتراتها من السهولة أو الصعوبة وما ينحصر بينهما من مستوى متوسط.

وأما الشق الثاني المتعلق "بالمناهجية التي تهم بتحديد مسار تطور الدروس وتدرجها " Progression"، فإن ذلك لا يقل نضجا عن سابقه فيما رأينا من تطبيقات، وكذا أساليب العرض المناسبة لتلك المحتويات وتوضيحها وترسيخها واستخدامها وتقييمها، وباختصار هي كل ما من شأنه أن يؤدي إلى جعل ذلك المحتوى قابلا للتعليم، والمتمثل من قبل المتعلم المعني.²³

أي أن معرفة أجدادنا بماذا نعلم؟ والإجابة عنها لا محالة تحدد المحتوى اللغوي الضروري للاستعمال انطلاقا من حاجات المتعلمين. وأهدافه تحققها تعليمة لماذا؟ هذه العملية ضبطت مساءلاتها ورسمت في برامج الكتب المدرسية التعليمية لدى علماء الأندلس، وما بقي البحث فيه هو فقط رصد تعليمية كيف؟ التي تراعي الخصائص الفردية والمعرفية والوجدانية، هي ما سنعمل على البحث فيها في قابل المقالات إن شاء الله تعالى.

الهوامش:

¹ - انظر اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، محمد الأوراعي، فيما يخص التعليمية عند الجاحظ من خلال رسالة بشر بن المعتمر، وكذا الفصول العشرة التي وردت في مقدمة ابن خلدون.

² - من هذه الخصوصيات: أنها أقطار تتماس مع أمم أجنبية لها لغتها الرسمية ولهجاتها المحلية، كالأمازيغية والأسبانية والعربية، هذه البلدان تمثل ألسنتها الناطقة للغة العربية مادة موفورة في تأدياتها صوتا، وصيغا، وبني تركيبية، وإن لم يكن النظر اللغوي يركز عليه، غير أنها مسجلة في ثنايا بعض الكتب، مثل كتاب "ارتشاف الضرب من لسان العرب" لأبي حيان الذي تضمن جزؤه الأول قضايا صوتية عندما تناول في قسم الصرف، في مواد الكلم، وذلك في خضم حديثه عن الأحكام الأفرادية، لمزيد من التفصيل انظر الكتاب المذكور تحقيق وتعليق مصطفى أحمد النماس، وما بعدها، المكتبة الأزهرية للتراث مصر طبعة: 2005. ص: ج: 1، ص: 4.

³ - من هذه المبررات البيداغوجية: أنها كتب اختيرت آنذاك متونا للتعليم لمدة زمنية طويلة ولا أدل على ذلك من تلك الشروحات والتذييلات والتلخيصات التي اعتنت بها، وأيضا لتضمنها أفكارا بيداغوجية هي في مستوى الفكر الحديث بل المعاصر، ولعل في صدارتها يتموقع كتاب الضروري في النحو. وكتاب الواضح في النحو للزبيدي الاشيلي" ت: 379هـ

⁴ - من هذه الكتب: اللسانيات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق، جهود نخبة الأندلس في تيسير النحو، حركة تيسير النحو، ندوة تيسير النحو الجزائر 2001، تجديد النحو، وتيسيره لشوقي ضيف، مشكلات النحو ودعوات التجديد، العربية والإعراب، واتجاهات تجديد النحو عند المحدثين دراسة وتقويم. هذه عينة فقط، والقائمة طويلة.

⁵ - انظر: اتجاهات تجديد النحو عند المحدثين دراسة وتقويم، لأحمد بن جار الله الزهراني، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة العربية السعودية، الرياض. ط: 1، 2007 المقدمة: ص: أ

⁶ *: إن مبادئ كل علم عشرة الحد والموضوع ثم الثمرة

ونسبة وفضله والواضع * الاسم الاستمداد حكم الشارع

مسائل والبعض ببعض اكتفى * ومن درى الجميع حاز الشرفا

وهذا النظم منسوب أيضا للشيخ محمد بن علي الصبان، أبو العرفان، المصري، المتوفى في القاهرة سنة 1206

⁷ - التمهيد في اكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها، تمام حسانت، سلسلة دراسات في تعليم اللغة العربية "4" جامعة أم القرى 1984، ص " 16 وما بعدها.

- 8 - مقدمة ابن خلدون، تقاسم أحمد الزغبی، دار الهدی، الجزائر طبعة 2009.
- 9 - لمزيد تفصيل انظر مقال: النحو العلمي والنحو التعليمي، وضرورة التمييز بينهما للشيخ العالم عبد الرحمان الحاج صالح، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية العدد ج 17، جوان 2013. ص: 9 وما بعدها، حيث يرى أن الناس " في الواقع يخلطون بين ميدانين مختلفين تماما: الميدان العلمي النظري والبحوث المتعلقة به والميدان التطبيقي الذي يخص التعليم، فالأول يشمل الدراسة العلمية لكل ما يحيط بالإنسان والإنسان نفسه بما في ذلك اللغة كظاهرة، ونظام أدلة ولا ينكر ذلك إلا معاند، وأما الثاني فيدخل فيه تعليم اللغة واكتساب المهارة في استعمالها ومن ذلك ما سميناه قديما بالنحو التعليمي في مقابل النحو العلمي.
- وهنا نشير إلى أن تعلم السليقة اللغوية طريقته خاصة منها ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين: " بأهم كانوا يروون صبياتهم الأراجيز، ويعلمونهم المناقلات، ويأمرهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب " 272/1، ويكمل الحاج صالح قائلا أنت " تعلم اللغة بالاعتماد على النصوص وانطلاقا منها هو الأصل في طريقة اكتساب المهارة في الفهم والإفهام لمدة طويلة حتى جاء وقت تناسي المعلمين لأهمية النصوص. ثم يضيف عبد الرحمان الحاج صالح مبينا الفرق البين بين الاكتساب للملكة اللغوية "بالمنشأ و الوراثة" وبين اكتساب الملكة بالتعليم - وهو ما يهمنا في هذا المقام - وهذا على لسان الجاحظ " أما النحو فلا تشغل به قلب الصبي إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده، وشيء ن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به... وعويص النحو فشيئا لا يجري في المعاملات، ولا يضطر إليه شيء " عن المقال المذكور آنفا: ص: 17.
- 10 - مقال النحو العلمي والنحو التعليمي، ص: 19.
- 11 - الذي نجده في كتب الشروحات، والتذييلات، وشروح الشروحات والتعليقات، مما يرجع بهذه الزيادة كما يقل الحاج صالح الكتاب التعليمي إلى كتاب في نظرية النحو. كما أسلفنا ذكره. من منقول الصفحة: 19.
- 12 - بعض الاختصاصات تندرج ضمن الكتب التعليمية، عادما تكتفي بالضرورة، وأما عندما تصير كقوانين صماء مغلقة مستبهمة، كحال المنظومات، والمختصرات الملغزة، فإنها تغدو كتبا لا هي من النحو العلمي، ولا هي من قسيمه النحو التعليمي.
- 13 - يوضح الحاج صالح هذه القضية بقوله: " والتفسير والتعليل الذي أدخله النحاة على المدونة النحوية منذ اقدم العصور فكان لا بد منه لتفسير الكثير من العناصر الشاذة والكثير من التنوع، إلا أن هذا التفسير هو أبعد شيء عن الطريقة الفعالة في تعليم اللغة " للمبتدئين وغيرهم.
- 14 - كتاب الايضاح آية في بابه حيث استطاع صاحبه أن يقدم منهجا قويا في صناعة الكتاب المدرسي للمبتدئين وذلك لأنه اعتمد على كل الشروط التي تقول بما البيداغوجيات الحديثة. وقد استطاع الباحث فادي صقر أحمد في بحثه " جهود نخبة الأندلس في تيسير النحو العربي أن يخلص خصائص هذا الكتاب في عشر منها: استخدام أسلوب الحوار، الإكثار من إعراب الأمثلة التوضيحية، والابتعاد عن الآراء الشاذة، وباقي الخصائص سنعمد إلى توضيحها لأنها جامعة لمعظم الكتب الأندلسية المختصرة. انظر الأطروحة على الشبكة العنكبوتية،
- 15 - المقدمة: 613، والمقصود من أن " شأنا أهم " في باب النظرية النحوية فقط.
- 16 - المقدمة: 614.
- 17 - تقرير المقرب، لأبي حيان، تح: عفيف عبد اترحمان، دار المسيرة، ط 1: 1982. ص: 41.
- 18 - انظر مثل المقرب، لابن عصفور الاشبيلي، تحقيق صلاح سعد محمد الملبطي، دار الآفاق العربية القاهرة: ط 1: 2006، ص: 99.
- 19 - انظر تقرير المقرب، كلام المحقق الهامش رقم: 2.
- 20 - المناهج الدراسية تخضع لشروط علمية مضبوطة وصارمة. انظر مقال الشيخ عبد الرحمان الحاج صالح: الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي، في كتابه: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية الجزء الأول، ص: 174. من بين الشروط والأسس: التركيز على المتعلم، أكثر من التركيز على المادة اللغوية على حدة، أي معزولة عنه وعلى احتياجاته الحقيقية، وهي تختلف باختلاف السن والمستوى العقلي....
- ص: 185.
- 21 - انظر: المرجع نفسه، ص: 187.
- 22 - انظر المقال في مجلة التعليمية العدد العاشر، جامعة سيدي بلعباس، وما ورد فيه يتعلق ببناء المادة التعليمية بناء على مراعاة المتعلم الذهنية والعقلية ما يلي:

- بناء الدرس النحوي على الشكل المقرون بالمعنى. وذلك كله تحت ضابط المعاني العريضة المتدرجة.

1/ نظرية الأصل والفرع وقيمتها الفاعلة في بناء البرنامج التعليمي.

استطاع هذا النحوي أن يحسن استثمار قضية الأصل والفرع في بناء أبواب الكتاب وهندستها بناء على ما هو منشود في أيامنا على ضوابط حددتها المناهج الجديدة، حيث قدم موضوعاته في ظل رؤية منتظمة متدرجة متناسقة، تراعي قدرة المتعلمين العقلية، فمثلا قدم أقسام الكلام في بناء أبواب كتابه ملتصقا فكرة الفصل مقياسا للترتيب، فقدم الاسم على الفعل، ثم ثلث بالحرف، وهذه هي الأصول الأولى التي يبنى منها الكلام ولا يستغنى عن معرفتها، وأما ما يأتي بعدها فإنما هو كلام على عوارضها الداخلة عليها، تتطلبه الإمكانيات التعبيرية التي يتطلبها المقام التواصل، وهذا هو عين ما تدعو إليه الديداكتيك الحديثة، بحيث يقدم السهل على الصعب، وهكذا بالتدرج استنادا على نظرية العرب التي ترى بأن الفرع هو أصل وزيادة.

فهذا التوجه يخدم المتعلمين في بدايات أطوارهم، بحيث يقدم لهم موضوع الأسماء قبل موضوع الأفعال، وبعد ذلك تأتي مرتبة الحروف التي لا تنفك عن قسم الأسماء والأفعال، وهذا الأمر يبدو وكأنه أمر بسيط معروف، إلا أن قوة هذا الرجل - ابن بابشاذ - ودكائه لم تقف عند هذا الحد، وإنما عندما يأتي إلى الأسماء فهو يقدمها دائما وفق الترتيب بالمواصفات التي تتدرج من الأسهل إلى السهل وهكذا تصاعديا مع هذا القسم فيقدم مثلا:

في المستوى الأول الخاص بالأسماء التي تدخلها الحركات الثلاث مع التنوين "وهو الاسم المفرد الصحيح المتصرف" وهذا لا تتطلب معرفته صعوبة، لأن مميزاته كلها واضحة يستطيع المتعلم أن يراها بأم عينه، وهذا يمكن أن يقدم في الأطوار الأولى من التعليم العام.

وبليها المستوى الثاني من الأسماء، وهو ما تدخله الحركات الثلاث من غير تنوين، "وهو الاسم المضاف إلى غير ضمير المتكلم، أو ما فيه ألف ولام، وهذا القسم يحتاج إلى فكر أكثر مما سبق ذكره في القسم الأول بالنسبة للولدان المبتدئين.

وأما المستوى الثالث، فهو ما تدخله حركتا الضمة والفتحة، ولا يدخله الجر والتنوين، وهو قسم الأسماء الممنوعة من الصرف. وهذا طبعا أصعبها تقبلا وفهماً لأنها تحيل إلى قضايا إنابة الحركات بعضها ببعض.

مراعاة تقدم الأسماء ليس عشوائيا إنما هو فكر ثاقب وعمل تصنيفي تربوي تدرجي باعتبار قدرات المتعلمين العقلية، وهذا ما لا نجد في الكتب التي تقدم ظاهرة الاسم تقدما يشوبه الخلط والعشوائية.

وإذا ما تمعنا طريقة نظره فإننا نجد أنه يتناول الاسم - كتعريف فيه - تناولا فيه ترتيب عجيب، بحيث يقدم أصنافه كماهيات، دائما على طريقة تدريسية من الأسهل إلى ما دون ذلك في السهولة ثم الأصعب، **فالاسم هو ما أبان عن مسمى**، شخصا، كان أو غير شخص رجل امرأة، زيد هند ونحوه من المربيات، **وعالم ومعلوم ونحوه من الصفات، وعلم وقدرة وفهم ونحوه من المعاني**²²

فإجابه عن السؤال الأول، ما هو الاسم؟ يقدم هذه الأسماء بنفس ما رأينا في المراحل السابقة، فيقدم الاسم الذي هو عبارة عن أشخاص، ثم الأسماء المتمثلة في الصفات، ثم تأتي بعدها الأسماء التي تدل على المعاني، فالقسم الأول يشغل المحسوسات، وكل ما تدركه المربيات، وهذا يسهل على المتعلم الصغير فهمه في بدايات تلقيه المعرفة النحوية، ثم يتبعه بالحديث عن الصفات التي تكون جارية على الموصوفين، كقولنا هذا رجل عالم، أما المعاني فهي تدرك بكد من العقل لأنها تتطلب تصورات فيها الكثير من التجريد، لأنها لا تجري على الموصوفين كأسماء الصفات التي تأتي قبلها ترتيبا.

ثم لما يأتي إلى القسم الثالث المتمثل في أسماء المعاني فهم يركز على ترتيب دلالاتها بناء على نفس الطريقة، بحيث أن معرفتها تدرك استعمالا باستعمالات خاصة بزيادة إبانة بوسائط إضافية، وقد أورد لها ثلاثة وجوه:

- الوجه الأول: تقول فيه، هذا رجل ذو علم، باستعمال لفظة "ذو" التي بمعنى صاحب، أي تصفه بالإنفراد.

- والوجه الثاني، أن تقول له: هذا رجل له علم، فأنت تصفه بالتركيب.

- والوجه الثالث، يأتي عن طريق الاتساع، فتقول: هذا رجل عليم، كأنه لكثرة علمه جعلته نفس العلم بحيث يكون القول محققا.²² والاتساع كما هو معروف يتضمن ثلاث دلالات، الاتساع والمبالغة والتوكيد.²²

²³ - انظر : Dictionnaire de didactique des langues R .Galisson et D. Coste/ HACHETTE p: 40

قائمة المراجع والمصادر:

- اتجاهات تجديد النحو عند المحدثين دراسة وتقويم، لأحمد بن جار الله الزهراني، مكتبة الرشد ناشرون ، المملكة العربية السعودية، الرياض. ط:1، 2007
 - "ارتشاف الضرب من لسان العرب" لأبي حيان تحقيق وتعليق مصطفى أحمد النماس، وما بعدها، المكتبة الأزهرية للتراث مصر طبعة: 2005.
 - اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، محمد الأوراعي
 - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية الجزء الأول
 - تقريب المقرّب، لأبي حيان، تح: عفيف عبد اتلرحمان، دار المسيرة، ط 1: 1982
 - التمهيد في اكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها، تمام حسان، سلسلة دراسات في اللغة العربية "4" جامعة أم القرى، ص: 16 وما بعدها.
 - "جهود نخاة الأندلس في تيسير النحو العربي فادي صقر أحمد
 - الضروري في النحو لابن رشد،
 - مثل المقرّب، لابن عصفور الاشبيلي، تحقيق صلاح سعد محمد الملبطي، دار الآفاق العربية القاهرة: ط:1 2006
 - مقدمة ابن خلدون، تقديم أحمد الزغي، دار الهدى، الجزائر طبعة 2009
- المجلات:
- 1- مقال: النحو العلمي والنحو التعليمي، وضرورة التمييز بينهما للشيخ العالم عبد الرحمان الحاج صالح، مجلة الجمع الجزائري للغة العربية العدد ج 17، جوان 2013
 - 2- مقال نظرية العامل ودورها في إعداد برامج تعليمية رائدة مجلة التعليمية الصادرة عن جامعة سيدي بلعباس، العدد 10.
- المراجع الأجنبية:

Dictionnaire de didactique des langues R .Galisson et D. Coste/
HACHETTE. Paris Edition 2 1978.